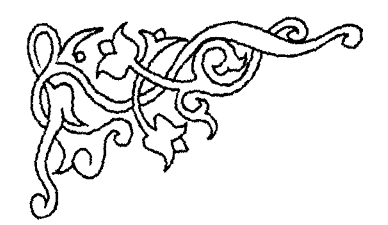


فاطمة الزهراء
والفاطميون

عباس محمود العقاد


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

ترد الإشارة إلى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية .

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة(1) النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه أن البيت إذا احتاج إلى الخبز فهو أولى به من الجامع .

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبًا إلى المسجد القريب أو عائدًا منه إلى داره .

* * *

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى ﷺ وآله ، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء أخوتى أجمعين : محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب إلى عم النبى لا إلى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريًا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبًا إلى اسم « محمود » وهو كذلك من أسماء النبى ﷺ ، ولم يكن لأبى أخوة ، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة .

* * *

---

(1) بالعترة : العترة بكسر العين : نسل الرجل وأقرباؤه الأدنون .

ورثت هذا الحب الشديد للنبى ﷺ وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنَّة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيرًا فى دراسة تاريخ الإسلام .

استفدت منه أننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على إنكار حق ، أو إنكار فضل ، أو إنكار نسب ، أو إنكار ما من ضروب الإنكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب .

و لم أستفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الإنسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل[٢] هذا الصغار[٣] .

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى أننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام ، وأنه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الإشاعات و لم أعطها من بادئ الرأى شأنًا أكبر من الإشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين .

* * *

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى أننى قاربت سير العظماء الإسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، و لم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية باذخة تخوِّلها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام .

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حياة الزهراء ، فإنها – سلام الله عليها – قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج علىّ ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبينهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب

---

(٢) عوائل : جمع غائلة وهى الداهية والشر والمهلكة .

(٣) الصغار : بفتح الصاد : الذل والضيم .

لها ترجمة لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .

* * *

وهذا الذى قصدت إليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة – عليها السلام – أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها .

ونعود إلى الوراثة فنقول : إن أول ما نضيفه إلى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الإيمانية فى نفس الزهراء ، أنها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت أصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث .

* * *

القسم الأول

فاطمة الزهراء

* أم الزهراء ..
* نشأتهـا ..
* زواجهـا ..
* بلاغتهـا ..
* فى الحياة العامة ..
* وفاتهـا ..
* شخصية الزهراء ..
* الذريّـة الفاطمية ..

أم الزهــراء

حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة – أم الزهراء – رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الإفاضة فى الأخبار إلا فى التفصيل .

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وأنها – رضى الله عنها – كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الإيمان .

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعًا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان علمًا فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم ، كورقة ابن نوفل وأسرة الزبير بن العوام .

* * *

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك إلى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها إلى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام .

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبىٍّ ، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة ، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية .

فأبوها خويلد هو الذى نازع تُبَّعًا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك[1] من مناسك دينه ،

---

(١) المسك : الموضع يأتيه الإنسان ويتردد إليه فى خير كان أو غيره ، ومناسك الحج عباداته .

وقال السهيلى فى الروض الآنف : « إن تُبَعًا رُوِّع فى منامه ترويعًا شديدًا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد أن روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلٰهى – إذا أقدم على فعلته – قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه .

* * *

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبى ﷺ عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . إذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم إلى كاهن أو كنيسة ، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب إليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتَّاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « إنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. » .

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرةً منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها إلى النصرانية .

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان .

وقد روى عنها كلام قالته للنبى ﷺ حين فاجأه الوحى فعاد إليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرِّى به عنه وتثبِّت به جناحه آية على العلم بلباب الدين علمًا يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فإن الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحرًا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين

ما لا يدركه عامة قومها ، فعلمت أنه فضيلة وأن النبى الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبى وقد آمنت أنه وحى وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدًا . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل[٢] ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة » .

* * *

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم .

وهى – على هذا – طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة إلى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبى ﷺ أن يخبرها إذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول إلى فخذى اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها[٣] وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فإنه ملك وما هو بشيطان » .

وهذا الاختبار غاية ما كان يُنتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فإن البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا موجب إذًا لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث .

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل[٤] والمال الجزيل ، وصدق من قال أن السعادة لا تتم ، فإن هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الزوجية ، فإنها تزوجت فى صباها برجل من هامات[٥] مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير

(٢) الكل : الثقيل لا خير فيه .

(٣) الخمار : بكسر الخاء : النصيف وهو ما تغطى به المرأة رأسها

(٤) الأثيل : القديم المؤصل .

(٥) هامات : الهامة : الرأس من كل شىء .

سُمِّى باسم هند (لعله دفعًا لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السيدة فاطمة وقتل فى جيش الإمام فى وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله .

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يُكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضله علمًا من أعلام النساء فى التاريخ ، ولا شيء أدل على رجاحة لبِّها من أناتها[٦] فى اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تختار .

أما كيف اتصل النبى ﷺ بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على أنه كان بمشورة من عمه أبى طالب ، وأن أبا طالب قال له فى سنة من السنين : « يا ابن أخى : أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك » . وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب إليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ » .

وقد سافر النبى إلى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه أنه حين عاد من السفر وكل إلى غلامها ميسرة – الذى كان بصحبته – أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرَّضت له بذلك فى حديث أقرب إلى التلميح منه إلى التصريح .

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح ، ثم أوعزت إلى صديقة لها – هى نفيسة بنت منية – أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلَّة المال » . قالت : « فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها » .

(٦) أناتها : الحلم والرفق والتؤدة .

وروى الزهرى صاحب أقدم السير أن « رسول الله ﷺ قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة[٧] هى الكاهنة – فقالت له : جئت خاطبًا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فو الله ما فى قريش امرأة – وإن كانت خديجة – إلا تراك كفؤًا لها ... » .

وأشبه الأشياء بأن يكون – بين الروايات المتعددة – أن النبى ﷺ كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهوَ يفاتح عمها فى الأمر : « ... إن محمدًا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان فى المال قل فإنما المال ظِلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو – أو ابن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى – « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه »[٨] . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها إلى أن قارب الخمسين .

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال .

وكان النبى ﷺ عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول أنها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » . وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات أنهم ولدوا مع مَن ذكرنا أسماءهم .

وقد يرجِّح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين

---

(٧) مستنشئة : استنشأ الرجل الأخبار : بحث عنها وتطلبها وتتبعها .

(٨) يقدع أنفه : قدع الرجل صاحبه منعه وكفه . والفرس كبحه .

دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام .

« عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم .. » .

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الإلٰهية .

لقد تأخرت به قلّة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافًا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابة[٩] العليا .

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة[١٠] الذكية ، فتأيمت[١١] فى نحو الثلاثين .

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل إنسان عاقل رشيد . .

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فى غنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل إنسان عاقل رشيد .

أيهما كان خيرًا ؟ ..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟

لم تمض سنوات على هذه الآصرة[١٢] القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين .

فلم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد إلى جانبه قلبًا كريمًا وروحًا عظيمًا وسكنًا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن إليه خشية فؤاده ،

(٩) الذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة . ومن الجبل أعلاه وفلان ذؤابة قومه أو أعلاهم وأشرفهم .

(١٠) الوضيئة : الحسنة النظيفة .

(١١) تأيمت : المرأة بلا زوج - بكرًا أو ثيبًا .

(١٢) الآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء . وما عطفك على رجل من قرابة أو معروف .

و لم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن إليها أنها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء(١٣) التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء .

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله و لم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها – لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين .

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعوامًا بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وإن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب إنسان عظيم .

---

(١٣) العرواء : بضم ففتح : قرة الحمى ومسها أول رعدتها .

نشـــأتهـا

إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمَّع بوادره فى غير تلك الدار ، وغار حراء .

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورًا ووراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام .

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة[١] بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت[٢] ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئًا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات .

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئًا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذى يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسًا للألفة والغرابة منفردًا بين أقيسة النفوس .

وأكبر الظن أنه ينشأ منطويًا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبًا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون .

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها ، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنِّها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان .

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات

---

(١) الهيمة : الصوت الخفى لا يفهم .

(٢) القنوت : القيام فى الصلاة على الرجلين والإمساك عن الكلام فيها

أخوتها الكبار إلا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغارًا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرًا مريرًا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت إلى أختين ، لأنهما خطبتا إلى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوًا للأبوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء .

جد من كل جانب تركن إليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله ، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنًا ونهض به زمنًا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين .

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق .

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين .

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد جراح أبيها فى غزوة أحد ، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها .

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشىء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها إليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال .

* * *

وسواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبى ﷺ وسمعته من علىّ ، وأنها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وأنها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات .

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف[٣] : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء .

سكنت هذه النفس القوية جثمانًا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف ، فإنهما مزيج متعب للنفس والجسم معًا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هى راحة الإيمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء ، فإنها نشأت فى مهد الإيمان إذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها .

---

(٣) اعتكاف : اعتكف فى المسجد أقام به وحبس نفسه فيه .

زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « إن عبد الله بن حسن دخل على هشام ابن عبد الملك وعنده الكلبى فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبى : خمسًا وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه » .

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها — عليها السلام — قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة .

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبى ﷺ كان يبقيها لعلىٍّ رضى الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال : إنها صغيرة . كما جاء فى سنن النسائى .

وفى أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا علىّ ! » فقال علىّ : « مالى من شىء إلا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا » .

وفى رواية أن عليًّا سأله النبى : « هل عندك من شىء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أى التى تحطم السيوف — وكان النبى قد أهداه إياها — فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم .

جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى : « فباع بعيرًا له ومتاعًا فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهمًا ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل .. » .

ثم استطرد صاحب الأنساب إلى رواية أخرى ، يرتفع سندها إلى علىٍّ نفسه قال : سمعت عليًّا عليه السلام يقول : (أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فقلت : والله مالى شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه فقال : وهل عندك من شىء ؟

قلت : لا . قال : فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها إياها) .

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا علىّ ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليًّا بها قبل أن يخطبها .

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت[١] أن أزوجك خير أهلى » .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرَّتان .

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ . إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا وحكمًا عادلاً وخيرًا جامعًا ، أوشج[٢] بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا وكان ربك قديرًا ، وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوِّج فاطمة من علىٍّ وأشهدكم أنى زوَّجت فاطمة من علىٍّ ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

قال أنس : « وكان علىّ عليه السلام غائبًا فى حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها .. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبوا . فبينما نحن كذلك إذ أقبل علىّ فتبسم إليه رسول الله ﷺ وقال : يا علىّ ! إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وإنى زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة ، فقال علىّ : رضيت يا رسول الله ! ثم إن

---

(١) أليت : قصرت وأبطأت .

(٢) أوشج : أوشج الله بين القوم ألف وخلط

عليًّا خرَّ ساجدًا شكرًا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب » .

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب » .

ومن المرجح جدًّا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى ﷺ فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فإن سكتت أمضى الزواج ، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفى زواج الزهراء قال لها : « يا فاطمة ! إن عليًّا يذكرك . فسكتت ، وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا » .

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا أنه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت فى نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات .

* * *

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الأخبار وصل إلينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والإنكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال .

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائمًا على المقابلة والموازنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله ، وإلى الأحرى أن يصدر ممَّن أسند إليهم القول أو نُسب إليهم العمل .. فإن الأخبار إذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه .

فمن المعقول مثلاً أن يُؤثر النبى عليًّا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يُؤثر زواجها من علىٍّ على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد علىّ فى خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل

من عنده ما لابد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة – قبل الهجرة إلى المدينة – لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجًا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين .

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل إذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح .

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز .

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث .

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية فى المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكمًا قاطعًا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعًا عليه أو مقاربًا للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال .

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها إلى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم ، وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يَزِنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف .

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير .

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورًا لا شك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبًا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجًا وتعويجًا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس .

فإذا طالع كتبًا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن إلى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب إن لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف .

وما من شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معًا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئًا إن لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل[٣] والافتراء ، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلاً يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهى مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء .

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء « العلماء » الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابًا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فإذا هو منقلب عليه .

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين — الذين عاشوا زمنًا فى الشرق — كتابًا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب ، فإذا العيب هو فى الإسفاف ، وكم فى الإسفاف من عيوب ، بل من ذنوب .

ومن تفاهاته وسفاسفه[٤] أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدًا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول أنها لما عرض عليها النبى الزواج من علىّ سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلاً بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تُزوج من رجل فقير .. !

لو كان السند الذى استند إليه هذا « العالم » واضحًا ملزمًا لقلنا أنها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله أسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه .

---

(٣) التمحل : تمحل الشيء طلبه بحيلة وتكلف . ومنه تمحل له عذرًا .

(٤) سفاسفه : السفساف : الردىء من كل شيء ، وما دق من التراب .

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وأن أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان .

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ، وأن تُحرمه إحدى البنات .

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى إبانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث الطويل ليهتدى إلى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى إلى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات .

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى ﷺ يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه .

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب إلى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها لأنها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة(٥) ، فهو الجدير إذن بالالتفات .

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة إلى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة أنه شكاية من فقر علىّ بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم إلى رواية البلاذرى فى أنساب الأشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أُبلغت زواجها بعلىّ فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وإنما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن أحدًا يخطبها بعد أن قاربت العشرين .

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء ، وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟ .

---

(٥) غضاضة : النضارة من الشباب والطراءة . والمذلة والانكسار تقول : هو شاب بين الغضاضة ، وليس عليك فى هذا الأمر غضاضة .

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمي ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلىّ .. فهو إذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف .

والبلاذرى – بعد – لم يذكر شيئًا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب علىّ أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى إسحاق عن حبشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله ﷺ فاطمة أرعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدًا فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى إنما هو من إبداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه إليه لقول قائل إن السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فإنه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه إليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين .

ونعود إلى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول أننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل علىّ ، فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه : إن السيدة فاطمة أشارت إلى فقر علىّ حين بُلغَتْ خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم .

وبين الخبرين – مع هذا – بون بعيد .

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « لما تأيّمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « إنك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وإنك والله إن أمكنت عليًّا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وإن أردت أن تصيبى بنفسك مالاً عظيمًا لتصيبنه » ، فو الله ما قاما حتى طلع علىّ يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يا بنى فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرًا . فقال :

أى بنية ! إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدى . فقالت : أى أبه ! إنى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى . فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك . ما هو إلا رأى هذين ! .. ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلاً منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فو الله ما على هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فإنى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وإنه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم » .

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم — تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير .. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير إشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول[٦] .

فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى ﷺ قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وألطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه فإن جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن تتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين .

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم ، وأنه كان أبًا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه إلا عالمًا بما يلعجه[٧] فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه

---

(٦) البتول : المنقطعة عن الزواج .

(٧) يلعجه : لعج فلان البدن بالضرب آلمه وأحرق جلده . والحب فؤاده أحرقه .

لها ما قاله ﷺ : « مالك تبكين يا فاطمة ! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا » .

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فإنه ﷺ كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها : إنى أريد أن أحولك إلىَّ . فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله : قد تحول حارثة ابن النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يا رسول الله ! إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله ، والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب إلىَّ من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة .

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « إن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى ﷺ خوخة[8] .. وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله ﷺ إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلىّ : إن ابنىَّ أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج علىّ إلى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به إلى فاطمة ، فاستصبحت .. فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل – وذكر كلامًا وقع بينهما – فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى ﷺ أن يسد الكوة فسدها » .

إلى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « أنه ﷺ كان يأتى باب علىّ وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى[9] الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا .. وكان النبى ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه .

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى ﷺ إذا قدم من سفر أتى

(٨) خوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة يكون بين بيتين .
(٩) بعضادتى الباب : العضادة بالكسر من الباب جانبه وهما عضادتان عن يمين الداخل منه وشماله .

فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين[١٠] من ورق[١١] (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله ﷺ وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله ﷺ ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء » .

* * *

وانتظمت الحياة فى السكن الجديد الذى أوى إلى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، إذ كان رزق علىٍّ من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلاً فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب علىّ منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدًا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين .

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيبًا صالحًا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم .

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعًا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخًا محفوظًا فى الصدور والأوراق .

فلما ولد الحسن سماه والداه حربًا فجاء رسول الله فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير .

---

(١٠) مسكتين : المسكة : السوار والخلخال .

(١١) ورق : الورق الفضة ، والدراهم المضروبة .

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..

حُزقَّه[١٢] .. حُزقَّه .. ترقَّه .. ترق عين بقَّه .

وربما شوهد النبى ﷺ ساجدًا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنَّى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفى إحدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم المطيَّة مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة ! » .

وكان إذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ .. ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى ؟ » .

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينًا بعد حين ، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه إلى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب إليك ؟ .. قال : إنما استسقى أولاً !

وقد يلفُّهم جميعًا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! » ..

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعًا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول إذا رقصت طفلها :

وا بأبى شبه النبى   لست شبيهًا بعلىّ

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضًا أن يتنافسوا عليه .

* * *

(١٢) الحزق : القصير .

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء .

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا علىّ ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل علىّ ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وإباؤها أن تهمل حيث كانت ، وإنما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ما دونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب إنسان .

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل إلى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء .. والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهمومًا وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس إلىّ ! » .

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى إلى فاطمة أن عليًّا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت إلى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لا تغضب لبناتك ؟ » .

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط أنه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى . لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن يُنكحوا ابنتهم عليًّا ، ألا وإنى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. إنما فاطمة بضعة منى يُريبنى ما رابها .. » .

* * *

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن

تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىٍّ على أنفة من أنفات فاطمة ، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وإن أباها العرف فى حالة المودة والصفاء .

ولا نحسب أن حياة الزهراء والإمام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا إليه ، فإن كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى .. وهى وأبناؤها كل ذريَة النبى الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان علىّ قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجلّ الأمور .

بلاغتها

قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » : « ... لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ - فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئًا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنَّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعًا بالرسالة ، مائلاً على مدرجة المشركين ، ضاربًا لثجنهم[١] آخذًا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هُزم الجمع وولوا الدبر وتفرَّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق[٢] وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والتى وبعد ما مُنى بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارًا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودًا فى ذات الله قريبًا من رسول الله ، سيدًا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون ، حتى إذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق[٣] المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخًا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه

---

(١) الثجن : (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية) .

(٢) الطرق : الماء المطروق .

(٣) الفحل القوى .

ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافًا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوسمتم غير إبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... » .

* * *

إلى أن قالت : « وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز إرث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئًا فريًّا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

ثم انحرفت إلى قبر النبى ﷺ وهى تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل إيراد الروايتين قال أبو الفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له أن هؤلاء – يشير إلى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت – يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » .

* * *

ونسبت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ،

وأنها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! .. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا[٤] على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبر آفـــاق السمـــاء وكـــورت[٥]
شمس النهار وأظلـــم الـــعصران
فـالأرض مـن بعـد النبـى كئيبـة
أسفًـــا عليــه كـتيرة الرجفـــان
فليبكـــه شرق البـــلاد وغـــربها
ولتبكـــــــــه مضر وكل يمان
وليبكـــه الطـــود المعظـــم جـــوده
والبـــيت ذو الأستـــــار والأركان
يـــا خـــاتم الـــرسل المبـــارك ضوءه
صلى علـــيك منـــزل القـــرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

مـــاذا على مـــن شم تربـــة أحمد
أن لا يشم مـــدى الزمـــان غواليـــا[٦]
صبت على مصائب لــــــــو أنها
صبت على الأيـــــام صرن لياليًـــــا

وقالت على قبره أيضًا :

إنـــا فقدنـــاك فقـــد الأرض وابلهـــا
وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فلـــيت قبـــلك كان الموت صادفنـــا
لما نعـــيت وحـــالت دونك الكـــثب[٧]

---

(٤) تحثوا : حثا التراب عليه وفى وجهه قبضه ورماه به .
(٥) كورت : كور فلانا طعنه فألقاه مجتمعًا . والمتاع جمعه وأبقاه بعضه فوق بعض وشده .
(٦) غواليا : العوالى جمع غالية وهى طيب مركب من أخلاط تعلى على النار .
(٧) الكثب : جمع كثيب وهو التل من الرمل .

ومضى آنفًا أنها تمثّلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارئ أقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرًا منهما حل محل شطر فى نقل الرواية .

* * *

نقول : إن الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ؛ فإنه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلّمه جميع المخالفين .

فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وأن قائله يعده فى نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير .

ويقبل الخلاف ولاشك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فإن حفظه فإنما يحفظه منقولاً أو مكتوبًا بعد حفظه .

فإذا قل الخلاف فى هذا فعلام إذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال أن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

إن هذا النصيب من البلاغة إذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لا يستكثر عليه .

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من إمام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل

فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى .

* * *

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن الرياشى عن عثمان بن عمرو عن إسرائيل ابن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « ما رأيت أحدًا من خلق الله أشبه حديثًا وكلامًا برسول الله ﷺ من فاطمة ، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسرَّ إليها فبكت ، ثم أسرَّ إليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى إذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها فقالت : أسر إلىَّ فأخبرنى أنه ميت فبكيت ثم أسر إلىَّ أنى أول أهل بيته لحوقًا به فضحكت » .

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعًا ، ويزاد عليه فى حديث السيدة عائشة أن امرأة فى فضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء فى حلمها ورصانتها . ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الإمام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح ؟ .

* * *

أما نسبة الشعر إلى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها فى الشاعرات إن ثبت ، ولا يضيرها إن لم يثبت ، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا إلى جانب القبول ، وليس بعيدًا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتًا يحكى بها حزنه وبثه ، فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء .

فى الحيـــاة العــامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفًا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معينًا عليها فى كثير من الأيام غير زوجها .

ثم توفى النبى صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافًا على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها .

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى إحدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك أن الخطر الأكبر فى ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة – سقيفة بنى ساعدة – حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الإمارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار ، وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرًا من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى إلا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فإنه لهم دون الناس » .. ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل وأخضب سنان رمحى » وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « إنى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى .. وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى » .

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره[١] ، وهو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يحضأ[٢] نارها بين

(١) يقطع دابره : الدابر آخر كل شيء ، يقال قطع الله دابرهم أى آخر ما تبقى منهم .
(٢) يحضأ : حضأ النار أرثها وأشعلها .

علىّ والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قومًا بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وإنما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعًا ويخرج منها بالسيادة الأولىّ التى كانت له على قريش فى الجاهلية .

وما من شك فى خطر هذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلاً بدفن الرسول ودعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ، ويغضب لدعوته ، حتى همَّ عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المسعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها .

* * *

وكان علىّ فى تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى إلى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! » ..

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى .. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى . فإنَّا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، وإذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى ، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه علىّ : « لا والله يا عم ! .. إنى لأكره أن أبايع من وراء رتاج » ..

ولقد كان أحكم – فى جوابه هذا – من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى إن تمَّت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين .

ولقد تمَّت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ، ولا عمر ، ولا أبو عبيدة نفعًا لأنفسهم ، وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة

دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الإسلام من فتنة الرِّدَّة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للإسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحًا أعظم وأقرب مما فتحوه .

* * *

وآمن علىٌّ بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقًّا يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر وكأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة .

وقد اختلف الصديق والفاروق والإمام يومًا أو أيامًا بعد وفاة النبى ﷺ ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعًا أنهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه .

وكانت السيدة فاطمة ترى حق علىّ فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء علىّ فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس على نقض البينة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشَّفت الدسيسة التى بيَّتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علىٍّ ويتحفز للوقيعة فصده على وعرض له بذكر المغششة والمخادعين ، ثم قال له : « إنك تريد أمرًا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابًا آخر لعله يلج منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .. ثم يقول : « إنك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما ردَّه علىٌّ ، ويكاد الخلاف ينتهى عند هذا وينطوى بانطواء الكلام فى مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التى اختلف فيها سند أبى بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله .

* * *

وخلاصة الحديث فى أمر « فدك » أنها قرية كان النبى يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ! .. فقال أبو بكر : « إن رسول الله ﷺ كان يقول : إننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. وإنى والله لا أغيِّر شيئًا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها » ويقال أن الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه – زكريا – : « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وأن أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت » .

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة أن أبا بكر قال : « يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارًا ولا درهمًا وأنه قال : إن الأنبياء لا يورثون . فقالت : إن فدك وهبها لى رسول الله ﷺ ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء علىّ بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضًا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق علىّ ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قُوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما كان يصنع بها أبى ! قال : فلك على الله أن أصنع كما كان يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك » .

* * *

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليًّا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلىَّ من قرابتى ، وإنك لأحب إلىَّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مِتُّ ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من

رسول الله ؟ إلا أنى سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : لا نورث . ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما رضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه » . فقال أبو بكر : « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم انتحب وبكى حتى كادت نفسه تزهق .. ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم . أقيلونى بيعتى » .

* * *

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى إلى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مراء أن الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وأن الصدِّيق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه ، ومن أسخف ما قيل أنه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق علىٌّ من غلتها على الدعوة إليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ولم يسمع أن أحدًا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى إشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئًا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وإنما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدًا من الخصومة ، بعيدًا من زمانها ، بعيدًا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه إلى ذلك داع غير وحى ضميره .

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « إن فدك كانت

مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف[٣] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة إياها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعثمان وعلىّ فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب إلىَّ منها ، فاشهدوا أننى قد رددتها إلى ما كانت عليه » .

* * *

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة[٤] قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ، وإحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب .

---

(٣) يوجف : أوجف الفارس فرسه حثه لكى يجد فى السير .

(٤) وشيجة : الوشيجة : عرق الشجرة وما التف من الأشجار ونحوها . يقال : بينهم وشائج النسب .

وفاتها

قلنا فى « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقَّت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء ، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول إليه .

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته ، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالإتقان فى مزية أخرى .

* * *

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير .

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى .

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فإذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى ، أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء .

« والإنسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تحديد النسل وزيادة عدده .

فهل يجوز لنا أن نقول : إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

« إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا إليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا إلى الجزم أو إلى التغليب .

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لاشك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام ..

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور و لم يعيشوا ، أو عاشوا و لم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبَّة من الصحة والنجابة ..

« وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ إبراهيم .

« فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شؤون النوع الإنسانى تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة إن لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرًا بالملاحظة والاعتبار » .

* * *

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب ، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين .

مات الذكور من ذرية محمد صغارًا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الأناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب .

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات ، وقد رآها النبى ﷺ فى مرض وفاته فقال لها أنها أسرع أهله لحوقًا به ، فلم تمض ستة أشهر – وقيل أقل من ذلك – حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة .

وكانت تشكو حينًا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فإذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يومًا وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « إنى لوجعة » . ثم قالت : « وإنه ليزيدنى أنى ما لى طعام آكله .. » فاستعبر ﷺ وقال : « يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ! » .

وزارها يومًا وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » .

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال[1] ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقًا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعًا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهنَّ بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر !..

* * *

مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدًا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق ، فذلك هو الإعظام غاية الإعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيــــد بلـــوغ هاتـــيك جـــــدا
تـــلك عليـــا مـــراتب الأنبيـــــاء

إن محمدًا يبكى لأنه يرى أحب الناس إليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية .. ويسأل

---

(١) الأنفال : النفل بفتحتين : الغنيمة والهبة .

السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ » .

الله أكبر .. إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون ؟

* * *

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه ، فإن العرب لوصَّافون ، وإن من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شيء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم أنه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع إليها إعياء الولادة فى غير موعدها ، إن صحَّ أنها أسقطت « محسنًا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار .

ونعود فنقول : إنها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

* * *

وحضرها الموت .. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمَّه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا[٢] » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشيء ؟ » قالت : « إنى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت إليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله .. » وتبسَّمت ، ولم تُرَ مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها .

* * *

---

(٢) كنفا : الكنف بفتحتين الجانب والناحية . وهو يعيش فى كنف الأمير أى فى ظله . وكنفه الله . حرره وستره .

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلاً حسب وصايتها كما دفن رسول الله .

فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى .

فإذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففى الإسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول .

شخصية الزهراء

من الواضح البيِّن أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى ، وزوجة إمام ، وأم شهداء .

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، أنها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ .

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتابة عن الزهراء ، فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجيالاً طوالاً ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا ، وفيما يلى من العصور .

لم يعرف التاريخ نظيرًا لثبات بنى علىّ وفاطمة على حقهم فى الإمامة ، أو فى الخلافة .

* * *

حوربوا فيها زمنًا ، وتولاها من لاشك عندهم ولا عند الناس فى فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعًا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية .

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم فى المشرق والمغرب ن وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء علىّ وفاطمة فى كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقًا أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم .

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين .

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم .

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة – ولابد لها من نصيب من الوراثة – فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علىّ ، بل هى إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام .

بعض الأخبار يفيد إن صح ، وإن لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا إن عليًّا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها .

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهى اعتقاد الناس فى ذلك العصر أن القضية قضية الزهراء وأن الإمام يجاملها فلا يغضبها ، وأنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى إليها .

* * *

وفى غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى إليه بالاً ، وهو فى هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذى روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا أن الصديق رضى الله عنه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ فى خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتًا نحيلاً يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى ... » .

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن علىّ ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع فى نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبى منبر ، وإنه لمنبر أبيك » ..

وسمع علىّ بالخبر فأرسل إلى أبى بكر رسولاً يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فإنه حدث ، ولم نأمره » .

قال أبو بكر : « إنى أعلم . وما اتهمت أبا الحسن » .

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هذه السن ما يغنيه عن الأمر والإيحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشًا يتكرر بين أبويه فى هذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نُهِىَ عنها فلم يعاودها .

* * *

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم .

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات إرادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى فى الحساب .

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تُسَرُّ بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب إليها من أن يقال لها أن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسْبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور .

* * *

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة أنها كانت شديدة التحرج[١] فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل علىَّ رسول الله ﷺ فأكل عَرْقًا[٢] فجاء بلال بالآذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ » .

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص[٣] وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها .

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، أنها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك إلى جوار رسول الله ﷺ فى مرض وفاته ، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب .

---

(١) التحرج : تحرج : فعل فعلاً يتخرج به من الحرج أى الإثم .

(٢) عَرْقًا : العرق بفتح العين وتسكين الراء : العظم أحد معظم لحمه يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من لحمه الرقيق .

(٣) تترخص : الترخص فى الأمر التسهيل والتيسير خلاف التشديد .

أما إنها كانت رضى الله عنها ذات إرادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه علىٌّ من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها .

* * *

وقد يكون من دلائل الإرادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تُسأل ، وأنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه .

ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت[٤] وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين .

(٤) عوصرت : توفيت مبكرة .

الذريـة الفـاطمية

كانت العرب أمة نسَّابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة[١] . ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له[٢] فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته .

إن الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه .

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها عن تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة .

وبعد الإسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا إليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا إليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس[٣] القتال نودى فى القوم : انتسبوا ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة .

* * *

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى ﷺ صونًا للنسب الشريف ، ودفعًا للأدعياء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الإسلام .. ولم ينهض منهم قط إمام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنًا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك إلى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب إليها رضى الله عنها .

من ذاك ما روى عن المأمون أنه قال يومًا لعلى بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة علىّ من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : إن لم يكن ها هنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله ﷺ من كان أقرب إليه

---

(١) جريرة : الذنب والجناية .

(٢) لا خلاق له : لا نصيب له من الخير .

(٣) وطيس : المعركة . والتنور من حديد ، وحمى الوطيس اشتدت الحرب

من علىّ أو من فى مثل قدره ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلىّ فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فإن كان الأمر كذلك فإن عليًّا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له » .

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه علىّ بن موسى بشىء » .

وظاهر أن علىّ بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :

تلـــوا باطـــلاً وجلـــوا صارمـــا
وقالـــوا : صدقنـــا ؟ فقلنـــا : نعـــم !

وإلا فما كان لحجة من أبناء علىّ وفاطمة – وقد رزقوا الألسن والفصاحة – أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان أن عليًّا إن كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وإن كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلامًا كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدًا من جدود بنى العباس فى حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها .

إلا أن دعاة الدولة العباسية إنما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين إلى الزهراء ، إلا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان .

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ، فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت إليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكًا القاضى مصروفًا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن شريكًا مخالف لك ، وإنه فاطمى محض . قال المهدى : علىَّ به ! فلما دخل عليه قال له : يا شريك ! بلغنى أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى . إلا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد ﷺ . قال شريك : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدى : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ، قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا – وأشار إلى الربيع – فإنه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا . فإنى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى

وقفاك إلىّ ، وما ذلك إلا بخلافك علىّ ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقًا . قال شريك : إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام ، وإن علامة الزندقة بينة . قال : وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك » .

* * *

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة .

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فى حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق علىّ ابن عمه ، إلى إنكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقع اللبس فى الكنى والألقاب ، فطعنوا فى انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات[٤] أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم .

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية إسماعيل بن جعفر الذى ينتسب إليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالإسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن إسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، لأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله إلا جاهل» .

---

(٤) المنابدات : المنابذة : مكاشفة العدو وإعلامه بالعزم على القتال .

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد .

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها .

كان ابن حزم أمويًّا غاليًا فى التشيُّع للأموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الإسماعيلية ، وبلغ من كراهته للإسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى إلى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حقِّ الإمام .

بل قد بلغ من كراهته القوم أنه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلاً من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب إلا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة إلى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز إلا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلاً .. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة فى معنى الحديث القائل أن فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين !

* * *

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول أن هواه قد جنح به إلى قبول ما ليس بحجة فى إثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والإثبات .

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : إننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه .

القسم الثانى :

.. والفاطميــون

* الفاطميــون ...
* النســـب ...
* الباطنيــة ...
* الباطنية الفاطمية ...
* حسن بن الصباح ...
* السرية الباطنية ...
* بناة وهدامون .. ومهدمون ...
* المعز لدين الله ...
* حضارة محتضرة ...

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق ، ويسمون من أجل هذا بالإسماعيليين .

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانًا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين .

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء إلى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على أنهم أسباط النبى ﷺ ، وأنهم أبناء الوصى علىّ بن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون أن الانتساب إلى النبى من جانب عمِّه العباس أقرب من جانب علىّ ابن عمِّه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون .

أما تغليب اسم الإسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم أنه هو الإمام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالإمامة فى مذهب الإماميين الإثنى عشريين .

وقد كان الإمام جعفر الصادق وصَّى بالإمامة بعده لابنه الأكبر إسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك أنه علم أن إسماعيل يشرب الخمر ، وقيل أن إسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه .

أما الإسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الإمام المعصوم والبداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذاك .

ومن الإسماعيليين من ينفى موت إسماعيل فى حياة أبيه ، ويقولون أنه شوهد بعد تاريخ الإشهاد على وفاته ، وإنما أشهد أبوه على وفاته خوفًا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالإشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، إذ لم تجر العادة بمثل هذا الإشهاد لولا الحيطة والتقية .

والخلاف بين الإسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على إمامة إسماعيل ، والإماميون

الذين لا يسلمون الإمامة لإسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الإماميين المعروفين بالإثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالإمامة إلى محمد المنتظر ابن الإمام حسن العسكرى ، وعندهم أنه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه .

ويتفق الإماميون على اعتقادهم عصمة الإمام فى تبليغ شؤون الإمامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى فى أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الأحكام .

ويضيف الإسماعيليون إلى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فإن أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون .

ولهذا يسمى الإسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون : إن كل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وإن مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء .

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الإماميون من عهد علىّ رضى الله عنه يؤمنون بإلهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما إليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الإسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء فى عهد انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبًا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الإمامة فى الدنيا والدين ، فإذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لإظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الإمامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد .

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الأعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرًّا خاصًّا فى عدد السبعة وعدد الإثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى إسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم إثنى عشر .. ولكل منهم فيه كلام طويل .

* * *

وللإماميين فروق يبسطونها بين النبى والإمام والحجة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والإمام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الإمام إمامًا مستقرًّا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو إمامًا مستودعًا فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقوتة ثم يردها إلى صاحبها ولا حق له فى التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم فى الخفاء إذا كان الإمام ظاهرًا فى العلانية ، لأن الإمام الظاهر عرضة للضرورات فلابد معه من حجة يرجع إليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما إذا استتر الإمام فلابد له من حجة ظاهرة ، وقد يسمون الإمام بالناطق أو بالصامت تبعًا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه .

أما النقباء فالغالب أنهم دعاة أو وكلاء ، ولابد لهم من أئمة يرجعون إليهم فى كل زمان .

أعلنت وفاة إسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الإمامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز إلى الرى ، إما لأنه لم يطق منافسة عمِّه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، وإما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالإمام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تنبهت إليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله إلى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية .

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه إلى ميمون القداح — كما سيلى — فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويوفق المؤرخ الهندى « مأمور »[1] بين الروايتين توفيقًا محتملاً جد الاحتمال فيقول أن محمدًا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وأن اسم « ميمون » كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون .

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين .

Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs.

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل سفره من المشرق إلى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيمًا بجوار حمص ورحل إلى مصر وهو يورى بالرحلة إلى اليمن ، ومن قائل أن بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الإسماعيلى سرًّا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر إلى تحذيره ، ومن قائل أنه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية ، فرحل إلى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة . وتتفق الروايات على أنه حينما سافر إلى مصر وانتقل منها إلى المغرب كان مطاردًا وكان على رأسه جعل[٢] لمن يأتى به حيًّا أو ميتًا حيث كان .

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة فى المغرب إلى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة[٣] فى بغداد .

جاء فى وصفه من كتاب — البيان المغرب فى أخبار المغرب — لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الإسماعيليين — « فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى .. فسار أبو عبد الله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل .. ورأى فى الموسم قومًا من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه .. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجهًا إلا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيًا حسنًا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون إلى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا إليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبه ويلقى إليهم بالشىء بعد الشىء إلى أن أشربت قلوبهم محبته ، فرعوا

(٢) جعل : الجعل (بالضم) أجر العامل وما يعطاه المجاهد يستعين به على جهاده .

(٣) الحسبة : المال الذى يأخذه محتسب البلد على الموزونات والمكيلات .

منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم : إن وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجد فى هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم ، فأنعم لهم بذلك .. » .

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيد الله فى المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الإشارة إلى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبًا لا طالبًا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال إليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل إلى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦) .

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لإقامة عرشه فى أفريقية وبسط كلمته من ورائها إلى الأقطار الإسلامية ، فإن ملك المهدى فى المغرب قد دام أربعًا وعشرين سنة إلى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدًا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح .

* * *

إن تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . إذ كانت هذه الدولة نموذجًا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على إنكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين .. فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لإنفاذ سياسة بعد

أخرى ، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء .

* * *

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الإفاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب إلى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد ، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث .

النسب

الدعوى المنتظرة هى أقوى الدعاوى ، وهى كذلك – ومن أجل ذلك – أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة .

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهى قوية لأنها لا تأتى عفوًا ولا يكتفى المدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم فى قبولها أو الإعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها فى صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون فى تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها فى مظان الإصغاء إليها والرغبة فى إثباتها .

وإذا كانت البواعث التى تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقًا أن يزيدها قوة على قوة وإلحاحًا على إلحاح ، فهى تتوارد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء فى التحدث بها والالتفات إليها .

إن الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا ..

وهى من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة ..

لأن البواعث التى تمليها تريب السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الإلحاح فيها مشككًا لمن يسمعها وكاشفًا للغرض والهوى من ورائها .

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط إلى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروِّجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعًا لروايته لم يجهد ذهنه فى التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك .

* * *

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث إليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات .

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب .

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصومًا كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه .

فلم يكن أقرب إلى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والإيمان .

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم إلى النبى ﷺ ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الإسلامية الذين تسرى بينهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والإدبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الإنصاف الواضح أو على الجور الصراح .

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين نذيرًا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين فى بغداد والأخشيديين فى مصر والأغالبة فى أفريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال .

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون .

عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون .

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلىّ أحق الناس باسم آل البيت فى رأى أتباع الدولة الجديدة ، وبلغ من إيمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا

العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى علىّ حتى لجأ الأئمة العلويون إلى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الإمام المستور ، ثم شاعت الدعوة إلى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات إلى بنوة محمد ﷺ . فقد يقال أن العباسيين أبناء العباس عم النبى وأن العلويين أبناء علىّ ابن عمه أبى طالب . أما الانتماء إلى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء إلى بيت النبى نفسه ، وليس إلى الأعمام ولا أبناء الأعمام .

فى أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرًا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره و لم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده أن وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام .

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء علىّ وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددًا لهم من أمداد العطف والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفًا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور .

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس ، ومن نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يأتى امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شىء أقرب إلى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بإنكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون إلى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالإلهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون إلى كل مذهب ونحلة[1] ، منهم كما أسلفنا الأخشيديون والأغالبة والأمويون الأندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعًا للفاطميين ثم تمحل[2] لمعاذير للخروج عليهم

(١) نحلة : بكسر النون : الدعوى . وما نحلتك ؟ أى ما دينك ومذهبك ؟

(٢) تمحل : تمحل الشيء : طلبه بحيلة وتكلف .

كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية . بل قيل فيما قيل أن أناسًا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى علىّ وفاطمة عليهما السلام ، ونسب إلى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى أنه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها إلى عبد الله بن رزام .

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله إلى كتابة الأشهاد ببطلان نسب الفاطميين أنه سمع أبياتًا نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

مـــا مقامـــى على الهوان وعنـــدى
مقـــــول صارم وأنـــــف حمى
ألـــبس الـــذل فى بـــلاد الأعـــادى
وبمصر الخليفـــــة العلـــــوى
مـــن أبـــوه أبى ومـــولاه مـــولا
ى إذا ضامنـــى البعيـــد الـــقصى
لـــف عـــرفى بعرقـــه سيـــد النـــا
س جميعًـــا محمـــد وعلـــىّ
إن ذلى بـــــذلك الجد عـــــز
وأوامـــى[٣] بـــذلك الربـــع رى

فأرسل إلى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول : إنك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا أنه قال شعرًا — هو هذه الأبيات — فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام هو ناظر فى النقابة — نقابة الأشراف — والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا .

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه إلى القادر بالاعتذار وإنكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك .. وهو قادر عليك

(٣) أوامى : الأوام : شدة العطش .

وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد ، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى أنه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الإنكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر أن المهدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وأن اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان » .

وقد اختلفوا فى نسبته تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود .. واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيًّا أو يهوديًّا فقيل أن عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل أن عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ، وقيل أن أمة للإمام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الإمام منتميًا إلى أهل البيت .

* * *

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « أن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم – حكم الله عليه بالبوار والدمار – ابن معد بن إسماعيل بن محمد بن سعيد – لا أسعده الله – وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعن اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه زور وباطل ، وأن هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية .. » .

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين أن المعروف عنهم أنهم « بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا يهوديًّا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوى فاطمى ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وكان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام متظاهرًا بالتشيع متسترًا به حريصًا على إزالة الملة الإسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسروه ، والدعاة منبثون لهم فى البلاد ، وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ،

وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الإفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة » .

ومن اعتدل من المؤرخين فى الإنكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو أنها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وأن ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله إلى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه .

وظاهر بغير عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الأشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين إلى ديصان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينًا بديدان وحينًا بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة إليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وإنما قيل عنه أنه كان على ثروة كبيرة وعاون إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون .

وادعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح فى قصور الخلفاء من التسرِّى واقتناء الإماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح إلى التنطس[٤] فى الطعام وحرم المباح منه بدلاً من إباحة الحرام ! .

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع فى نسبة الفاطميين تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود ، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخلافة حتى تسقط دعواهم فى الإسلام وترجع نسبتهم إلى أبعد الملل عن الديانة الإسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال فى جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات .

---

(٤) التنطس : تنطس الرجل : تأنق فى كلامه ومطعمه وملبسه .

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذى قيل أنه سأل المعز عن نسبه عند وصوله إلى مصر قد توفى قبل مقدم المعز إليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع أن اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له إلا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة .

وقد روى ابن خلكان أيضًا أن العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

إنا سمعنا نسبًا منكرا
يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا
فاذكر أبًا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته
فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم
يقصر عنها طمع الطامع

فإن صحّت هذه الرواية فالتحدى فيها بإظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون إلى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وإنما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى بإظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة إلى العزيز وحمله الهدايا إليه واعترافه بنسبه وأنه تلقى منه الشكر « لإخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو إمامته ومحبته لآبائه الطاهرين » .

وقد تواتر أن عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « إنك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ولكنك إذا أقمت علويًا فى الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. » .

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » إلى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى ، وأنه إنما حوَّل الخطبة إلى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وأنه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زلكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم إلى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، إذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى إلى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين .

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ، فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » أن ميمونًا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه أنه من فارس ، وكل منهم يحيل إلى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب .

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون أن شهادة الشاهدين بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين أنهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ .. هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف » .

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل – وهما سنيان غير متشيعين – ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها

حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى — هو عريب بن سعد — وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحًا فيه .

وغاية ما ننتهى إليه فى هذه المسألة — مسألة النسب الفاطمى — أن المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه ، وأن مطاردة عبيد الله عند اتجاهه إلى المغرب دليل على أن العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وأن مبايعة الشيعة لأبنائه — سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن — ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم تؤكده كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم — كما قدمنا فى صدر هذا الفصل — أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لإنكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه .

الباطنية

كان المنتفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم - كما تقدم - من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا إليهم فى البلاد الإسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - أن المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين إلا القليل الذين ينظرون إلى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فإنما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم أن الباطنيين جميعًا إسماعيليون ممن ينتمون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية .

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون أن الإسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالإسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج إلى جهد كبير فى التنفير والتشهير .

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين أن بعض المجاهرين بالإباحة والاجتراء على مناسك الدين الإسلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للإسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الأذهان أن دعاة الإسماعيلية جميعًا إباحيون ، وأن الباطنية هى إخفاء المنكرات وإعلان التشيع للتغرير والتضليل .

وقد قيل أن رجلاً من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبى
وغنى هزازيك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم
وهذا نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمها
ت ، ومن فضله زاد حل الصبى .

وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام فلم يتعب

إذا الناس صلوا فلا تنهضى
وإن يصوموا فكلى واشربى

ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب

ولا تمنعى نفسك المعرسـ
ـين من الأقربين أو الأجنبى

فكيف حللت لهذا الغر
يب وصرت محرمة للأب

أليس الغراس لمن ربَّه
ورواه فى الزمن المجدب

وقيل على الجملة أن الباطنيين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويدسُّوا عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وأنهم فى الأصل مجوس منوطون على بغض شديد للعرب ودينهم ، لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئًا فشيئًا من عقائدهم إلى التعطيل والإباحة والكفر بالبعث والمعاد وإنكار الفرائض والعقائد والأديان .

قالوا : وإن الإسماعيلية خاصة يبثُّون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والأيمان على مريديهم ألاَّ يفشوا لهم سرًّا ولا يظاهروا عليهم أحدًا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشوقه إلى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى إلى تأليه الإمام على مذهب الحلول ، وأنه هو روح الله قد حلت فى جسد إنسان ، ولعمرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » إلى هذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرًّا بإباحة الشهوات ورفض الأديان ؟! .

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والإشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات

وراحوا يعنتون أنفسهم فى جمع هذه الأخبار والروايات فإذا هى تتناقض ولا تستقر على قرار .

* * *

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الإنسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وما يعقل وما لا يعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك إلا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات .

فمن الطريف حقًّا أن يقيِّد المريدون بالأيمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فإذا هو سر يحلهم من جميع تلك الأيمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم إلى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل أنه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الإلهية ثم يقال عنه أن كراهة الدين من الأديان تبعثه إلى الجهاد سرًّا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملاً فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون .

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحية ما يهوِّن عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء .

كان تصديق هذا مفهومًا فى القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن الكافر يكفر فى سبيل الشيطان وأنه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلاً من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين .

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الإنسان ملحدًا ينكر كل شىء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شىء من الأشياء كائنًا ما كان ، إلا أن يكون ذلك الشىء

سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهل بحقيقته إلى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها على الناس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات .

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة إلى الإسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والإسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث فيه إلى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء .

وأغرب الغرائب أن أحدًا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر فى المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الإباحية والعصيان ، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام ؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ أن الانتماء إلى الإسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة إلى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم إلى الفاطميين أو الإسماعيليين هو السند الذى يركنون إليه فى محاربة الدولة العباسية وإنكار حقها فى الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الإباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين .

* * *

ولقد حدث فعلاً أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا إلى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النَّبْوة[1] بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسوَّل لهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام .

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الإباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل إليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة

(١) النبوة : التجافى والتباعد .

أخرى أن هذه الإباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردِّده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الإسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقلَّ فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ، ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير . وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف .

إننا عرفنا ألوانًا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضًا سياسية كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط .

ولكننا إذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى — فى هذه الحالة — للإحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، إذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل إلى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى إبانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدًا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدئ إلى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا أن أوراقًا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى إسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم إسماعيل بن جعفر الصادق جد الإماميين أجمعين .. !

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا سنبر
فليس عندى أننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة
يغرها عن دينها جعفر
قد كنت مغرورًا به برهة
ثم بدا لى خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشيت إلى جعفر حقبة
فألفيته خادعًا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه
وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا
لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

* * *

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك إن لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن إلى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها إلى قول صحيح أو نقد صحيح .

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الإسلامى من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة ، ونخص منها بالنظر ما يرجع إلى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى .

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة

والمنتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن حرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء علىّ وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم أن الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لإنكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعياء الوثابين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين .

* * *

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين فى الكوفة . فإنه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الأخشيد فاعتقله ولم يطلقه إلا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران أنهم قالوا له فى بنى عدى : « ها هنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل . فمضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة[٢] وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم » .

* * *

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضًا أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحًا مفرطًا ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أيامًا وليالى .. فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون أنه كمحيى الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك

(٢) المسمحة : أسمحت الدابة لانت وانقادت بعد استصعاب .

الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر .. » .

* * *

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنًا عن دعواه و لم يعدل عن طلب الولاية . كان خصيًّا مملوكًا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد فى مصر .. ! » .

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله إلى أبى العلاء المعرى : « ... إننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : إما منتحلاً لشريعة صبأ إليها ولهج بها إلى الحد الذى إن قيل له من أخبار شرعه أن فيلاً طار أو جملاً باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق ، ولكان يُكفِّر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله فى مهواة ومضيعة .. أو منتحلاً للعقل يقول أنه حجة لله تعالى على عباده ، مبطلاً لجميع ما الناس فيه ، مستخفًّا بأوضاع الشرائع ، معترفًا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجامًا على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى . فلما رمت بى المرامى إلى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبًا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببًا ، وحضرت مجلسًا جليلاً أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثًّا وسمينًا ، فحفظته بالغيب ، وقلت أن المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التقية سترًا ، وأمرًا تميز به عن قوم يُكفِّر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : إن لسانًا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقًا ، ويفتق من هذا العظيم رتقًا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور أقتبس

منه نارًا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارًا ، تعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون واختلف فى حقيقته المختلفون .. » .

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية . كتب رسائله إلى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظمًا على المتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيمًا كأبى العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرًا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور .

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « أن حساده أغروا به وزير حلب فجهز لإحضاره خمسين فارسًا ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنو عمه وتألموا لذلك فقال : إن لى ربًّا يمنعنى ، ثم قال كلامًا منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير الوزير . فوقع المجلس على الخمسين فارسًا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده » .

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرى زنديق لا يرى إفساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة وبعث خمسين فارسًا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا وإن أسلمناك كان عارًا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك يا عم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر إلى المريخ أين هو ؟» فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدًا ، وشد فى رجلى خيطًا واربطه إلى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجدات ! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت

الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض اذركار . فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىَّ أبياتًا من قصيدة أولها :

أستغفـــر الله فى أمنـــى وأوجـــالى
مـــن غفلتـــى وتـــوالى سوء أعمـــالى[٣]

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الإسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة[٤] ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخليق أن يقف النظر طويلاً عند قول داعى الدعاة أنه يطلب سرًّا من أبى العلاء ، وأنه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التقية سترًا » . فإنه قد يكون فى هذا القول مادحًا أو مازحًا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين .

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى إليه كل سرٍّ ، ويصل إليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه – فيما زعم الزاعمون – أن الدين لغو وأن القيامة وهمٌ وأن المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى إليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته إلى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعًا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فإنهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول إليه ، بعد طول العناء .

إلا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية الواقعية » حالة من الحالات التى

---

(٣) كتاب (أبو العلاء المعرى) للمرحوم « أحمد تيمور باشا » .

(٤) العيافة : زجر الطير لمعرفة مساقطها وأصواتها فيتفاءل أو يتشاءم بها .

لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره .

وقد صار المجتمع الإسلامى إلى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة .

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات . وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء فى غير بحث ولا مبالاة .

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم .

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقوامًا يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم .

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فإن الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الإنسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والإشارات .

وإذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكًا ضريرًا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال أن الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وأن هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين .

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو إسماعيلية ، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الإسماعيلية إلى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيرًا ولفقها تلفيقًا لهدم الإسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وإنكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقامًا منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان .

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف ، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها إلى ديصان الذى ظهر قبل الإسلام ، ومرة أخرى يرجع إلى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الإمام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون .

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى مجرى المألوف من طبائع النفوس ، فإن الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب إجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان .

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين إذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب إلى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد .

وربما تشيّع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الإسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الإمام عليه السلام إلى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن

هذا التشيع الممقوت حجة على الإمام علىّ ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه .

ففى حياة الإمام علىٍّ كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليًّا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الإمام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنًا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ، ومكان الإمام وابنه محمد فى الإسلام أرفع من أن يتطاول إليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلاً عن الولى والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برئ منهم الإمام علىّ وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه .

ولم يخل عصر الإمام جعفر الصادق - أبى إسماعيل رأس الإسماعيليين — من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الإمام جعفر إله يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرئ منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفَرْق بين الفِرَقِ « فادعى بعد ذلك فى نفسه أنه الإله ، وقال أتباعه أن جعفرًا الإله .. غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من علىّ ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم » .

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين .

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبد الله بن سبأ للإمام علىٍّ وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب إلى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك إلينا ممتنًّا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك

ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن إباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم[1] ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. » .

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا - وهو أعلمهم بالتنجيم - يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : « من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ :

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى إحدى قصائده :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها
وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلاً
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال ، والكهان من شيعة الكفر

---

(١) نحائزكم : النحيزة الشدة .

وأن جميـــع الكافريـــن مصيرهـــم
إلى النـار فى يـوم القيامـة والحشر
فجمعتنـا بعـد اختـلاف ومريـة[٢]
وألفتنـا بعـد التنافـر والزجـر
وأوضحت فيها قـول حـق مبرهـن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنـا إلى أن الكـواكب زينـة
وفيها رجـوم للشيـاطين إذ تسرى
مسخـرة مضطـرة فى بروجهـا
تسير بتـدبير الإلٰـه على قـدر
وأن جميـع الغـيب لله وحـده
تبارك من رب ومـن صمـد وتـر
ومـا علـمت منـه الأئمـة إنما
رووه عـن المختـار جدهـم الطهـر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله – وهو الحاكم بأمر الله – فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الإباحة وادعاء الربوبية ، وأنه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الإسلام ليفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وأنه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس فى السلام حين يدخلون إليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة أنه كان فى تخليطه وتجديفه[٣] فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال أنه تولّى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وأنه يهدم دولته ودولة الإسلام كله وفاقًا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه .

(٢) مرية : الشك والجدل .

(٣) تجديفه : جدف : كفر بالنعم ، واستقل عطاء الله .

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضه وبدواته ، فإن التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه .

وقد وضع كتاب عن « قره قوش » صوره للناس فى صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوها كلها جدًا لا مرية فيه ، وتناقلوها وأضافوا إليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء إلى زمن قريب ، وقد كان « قره قوش » على خلاف ما صوّرته الروايات عنه مثلاً فى الحزم وأصالة الرأى وحسن التدبير .

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وأنه كان مضطربًا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر .. فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربًا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها » .

على أن الأقاويل عن الحاكم — صحّت أو لم تصح — إنما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية .

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته إلى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية .

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبًا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين .

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة .

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال .

ليس شيء من ذلك بعيدًا ولا موجب لاستبعاده نظرًا إلى أحكام العقل أو شواهد التاريخ .

ولكن الذى نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على إنشاء دولة لهدم الدين الإسلامى والدولة الإسلامية معه ، وأن يشمل هذا التواطؤ أقوامًا فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل .

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد .

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أو شؤون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردًا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه .

إن الإيمان بالإمامة واطلاع الإمام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية فى نشأتها التاريخية .

فإن المؤمن بحق علىّ وأبنائه فى الإمامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله على أدعياء الإمامة والخلافة ؟

إنه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده إلا أنها حكمة يعلمها الله ، وأن الإمامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان ، وأن الإمام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بإلهام من الله .

وقد آمن شيعة علىّ بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين إمامة الواقع وإمامة الحق تباعدت معها المسافة بين إمامة الظاهر وإمامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه إمامة الباطن مستورة حتمًا فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونًا بما يتعلمه الطالب من الإمام المستور ومن دعاته الذين يخلصون إليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله وإشاراته ، ولابد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم .

وإذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الإمام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قصاء ؟

إنه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع ، فلا جرم يطيعه المطيع

وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون إمامته ، ويؤمن بهلاك روحه إن خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين .

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون إلا هكذا حيثما كان ، وقد كان .

ولا ننسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم : يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله .

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات « الموقف » أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الإمامية على الجملة تتلاقى هنا – بحكم الموقف الواحد – فى كثير من الأمور .

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد ، وإن كانت متعددة المطالب والموضوعات .

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة .

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لا يرتاح إليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم .

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان إخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيًّا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الإسماعيلية وأئمة الفاطميين . إذ كان يرى أن الإيمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد .

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الإلٰهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته إلى الحكيم أفلوطين .

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الإسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل إخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض هذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث .

وعلى نقيض ما قيل عن الإباحة فى مذهب الإسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الإلٰهى بالمبالغة فى التطهر والإعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الإلٰهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود .

وقد نبه إخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة أن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الإنسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات : « اعلم أن الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الإنسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضًا فى هذا المعنى شعرًا :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وإن طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيًا عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة من مات أو فى نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم إليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها » .

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى أنه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع إلى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله .

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« .... إنه يتجاوز – أرسطو – أشواطًا بعيدة فى التنزيه والتجريد ، فيرى أن الله – أو الأحد – من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول أنه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول أنه هكذا يكون .

« وقد يتصل به الإنسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فإذا انقضت فقد يثوب الإنسان بعدها إلى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد إلى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو أن الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وأن العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه فى مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات .

« ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئًا منه ينتقل من المعطى إلى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل لا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال .

« والنفس – وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين – تتجه إلى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه إلى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة . فهذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل

أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان .

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدًا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فإن العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى الهيولى التى لا نفس معها ، وهى معدن الشر فى العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدًا إلى الخلق ، وهو الإيجاد أو الإيجاب .

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات . فهى باتجاهها إلى النفس الكلية إلٰهية صافية ، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارًا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الإصدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..»

« والشر فى العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ..»

« ولا حرية للإنسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس إلى مرتبة التأمل إلى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينهما لشيء من الاختيار ، وإن قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... » .

هذه خلاصة وجيزة جدًا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب

محملاً فى بعض الأوقات ومفصَّلاً فى أوقات أخرى إلى اللغة العربية ، ووقع فى نقله خطأ إسناد وخطأ تفسير .. فنسب الناقلون فصولاً منه إلى أفلاطون ونسبوا مبادئ منه إلى أرسطو ، ولكن المتصوفة الإسلاميين وفلاسفة الإسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الإسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها إلى الأجساد التى تشقى فيها ، أو مكافأتها بردها إلى الأجساد التى تترقى فيها إلى مرتبة فوق مرتبتها .

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معًا ما يوافقهم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الإمامة الدينية ، وإنما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذًا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على إمكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وأن نفس الإنسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء .

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى أنه ابن الإمام علىّ بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجسدية ، زاعمًا أن البنوة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعًا إلى الإمام علىٍّ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم .

ولا شك أن العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفًا من مذهب أفلوطين كما وصل إلى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : « إن الله لما وهب العلم للعالمين قيل : هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل : هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وأنه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النفس إلى الكمال واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة إلخ إلخ » .

فهذا المذهب فى الصفات الإلٰهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا

إغراب ولا إبهام إننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم إلا ما يعطينا إياه ، وإننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة إلا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهمه منه أنه إنكار لعلم الله وقدرته ، إذ كان أصحاب الفيض الإلٰهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الإلٰهى مرتفعًا تعجز عن إدراكه العقول .

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فإن هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكروه غاية الإنكار ، فإن الخلاص من أوهاق[٤] المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام .

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان فإنَّ القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الإلٰهية على الموجودات جميعًا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيهًا لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات .

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل إليه أن اللاحق أفضل من السابق أو أن قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء .

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجرَّ إلى الخبط فى الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء .

وقد كان ابن هانئ الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون[٥] فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الإسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب أشبيلية فأقصاه خوفًا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول أن المعز أقدر من الله وإلا لما قال بعد ذلك :

(٤) أوهاق : جمع وهق بفتحتين حبل يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة .
(٥) يهرفون : هرف الرجل بصاحبه أطرأ بالمدح إعجابًا به .

وكـــــأنما أنت النبـــــى محمـــــد
وكـــــــــــأنما أنصارك الأنصار

وإنما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وأن الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وأن مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن ينديه لإمضاء تلك المشيئة . فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة إليه .

إلا أننا إذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع مثله من إمام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين إلى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها : « للربوبية سرٌّ لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سرٌّ لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سرٌّ لو ظهر لبطلت الأحكام . فقوام الإيمان واستقامة الشرع يكتم السرِّية .. » إلى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية .. وفوق كل ذى علم عليم .

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالإغراب لقال قائله أن النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سرَّ الغيب بغيرها ، وأن العلم لازم أن النبوة لا تصل إلى الناس أجمعين ، وأن الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الإغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير – كل أولئك يقود إلى الظنون حيث لا موجب للظنون .

* * *

وجملة القول أن الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة إلى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيًّا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة وإخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينًا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه .

فالإمام الغزالى – وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة – كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله ، والإمام ابن عربى

المتصوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعىْ الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضًا ويتهم بعضهم بعضًا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعًا :

خــل جنبــيك لـــرام وامض عنــــه بسلام
مت بداء الصمت خير لك مــن داء الكـــلام

إلا أن يكون مندوبًا لعمل لا حيلة له فيه أو متجردًا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه .

ومن المحقق أن الباطنية الفاطمية أضيف إليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية إلا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانًا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الإسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء .

* * *

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة – وهو أمير الجيوش الذى ينسب إليه حى مرجوش والجمالية – وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الإسماعيلية ، فصادروا الإسماعيليين ونفوا أناسًا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعًا فتحدث إلى ابن عمه فى قتله عند دخوله إليه بقصر الخلافة ، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، وإغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعًا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا إليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه إغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم وإسناد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفًا يومئذ فى

الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الإسماعيلية أن يستبد بالإمام المطاع ولا احتاج الإمام المطاع إلى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة، ولا إلى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والإغراء والاستعانة بذوى المطامع والتراث(٦) .

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائيين إلا بعد استيلائه - كما سيلى - على قلعة « آلموت » واضطراره إلى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو فى قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال .

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها .

* * *

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع إلى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزامًا لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الإسماعيلية ، فلو أنهم قالوا لأولئك الرعايا أن الإسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم ، إذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه بنسبتهم ، وأن أصحاب السلطان الفعال من أجناد الدّيلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فإن لم يكن خطر الإسماعيلية خطرًا على الدين وعلى المسلمين جميعًا فهو خطر لا يهم الناس فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورًا على أصحاب العروش والدسوت(٧) .

ولهذا راجت خرافة النسب إلى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية

(٦) الترات : جمع ترة وهى الثأر .

(٧) الدسوت : جمع دست وهو المجلس وصدر البيت .

ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته إلى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعيون الإماميون أنفسهم بين القائلين بإمامة موسى والقائلين بإمامة إسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الإسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين .

* * *

ومحصل القول فى المذهب الإسماعيلى من الوجهة الفلسفية أنه هو مذهب الفيض الإلٰهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف إليه القول بعصمة الإمام وأنه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والإحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا أن القول بالعصمة الواجبة لكل إمام كان مذهبًا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة ، فإن الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لإمام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبًا من الشيعة محبًّا للمتشيعين .

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الإمام علىّ وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبًا من لا ينكره اعتقادًا ولا يرى الخلافة لأحد غير الإمام علىّ وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن علىٍّ على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين .

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق إلى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الإسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح أن الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات إلا أضافت إليها شيئًا من عندها وطبعتها بطابعها ، وأنه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم إلى وجهته ، بل كان من الذين يريدون الدولاب إلى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم إلى التعلق به إلا أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابًا مستقلاً يتعلق به الآخرون .

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة ، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبًّا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبًا لدفعة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقًا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها .

والسيطرة محبوبة لكل إنسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والإذعان للمسيطرين .

ذلك مضطر إلى طلب السيطرة ، وهذا مختار فى المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها إذا جشمه الطلب فوق ما يطيق .

وكان الرجل داهيًا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله .

أو لعله كان داهيًا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه إليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون .

ومما لا ريب فيه أن الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة إليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا

خبرًا واحدًا يدل على أنه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما إذا كان التصديق هو طريقه إلى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس – أو من مألوف هذه النفوس خاصة – أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز إيمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون .

* * *

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالاً شتى يبدو فيها خادعًا مخدوعًا فى وقت واحد ، فهو حصيف لاشك فى حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، إذا كان مغلوبًا على أمره مضطرًّا إلى تسويغ دفعته بعقيدة تجملها فى نظره وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه .

أما إن حسن بن الصباح كان مغلوبًا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى إلى السلطان ، فإنه ما اتصل بأحد قط إلا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان .

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى أن تلاميذه جميعًا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيًّا ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان .

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواريخ » .. وفى روايته عن صباه يقول أن سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة إذا وصل أحدهما إلى منصب من مناصب الرئاسة ، وأن ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيَّره بين ولاية الرى وولاية

أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع بإحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه إلى مكانة أكبر من مكانة الولاة .

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل - من محبيه فضلاً عن مبغضيه - أنه كان بعيد المطامع منذ صباه .

وحدث ، وهو فى الديوان ، أنه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بإنجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على إحباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه إلى منصبه فوق كتفيه .

وقيل فى تعليل سفره إلى مصر للقاء الخليفة الفاطمى أنه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره إلى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص إلى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هناك علوم الإسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق .

ومن الواضح أن الشخوص إلى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له إلا أمل واحد لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة .

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة[1] كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الإمارة والملك لو تمهد إليهما السبيل ، ومن ثم زوَّج ابنته للأمير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زيَّن له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملاً فى الملك إن استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده .

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الإشارة إليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله إلى القاهرة ، فاختار نزارًا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الإسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم أنه مثل بين يدى

---

(١) الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس ، وقوة القلب .

الخليفة المستنصر فوكَّل إليه الخليفة أن يدعو إليه والى ولىّ عهده بين الأمم الإسلامية . قال : « فسألته ومن ولى العهد ؟ فأشار إلى نزار .. » .

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته وإسنادها لأخيه موسى ، فإن الإسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء .

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسًا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الإسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه إلى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والإقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الإفلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة فى المذهب الإسماعيلى ، وهى الدعوة إلى إمامة نزار .

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو أن حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجًا بما لقيه وضيقًا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلن المخرج إليه ، فقال يومًا لأحد أصدقائه فى أصفهان : لو أن معى صديقين أركن إليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله .

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف أنه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الإسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زيَّن له السفر إلى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره إليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعًا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز أنه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه إليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها .

وواضح أن تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة إلى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تيئسه من الوثبة إلى السلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته إلى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد إليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج إليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل أنه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدًا لنزار بايعه بالإمامة وعمل باسمه ودعا إليه ، حتى انتهى به المطاف إلى قلعة يقيم فيها زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها ، وساعده على انتزاعها أنه خيل إلى أهل الإقليم أن مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (إله) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (أموهث)[٢] بمعنى المعلوم أو المعلم ، إيماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الإمام فى كل زمان !

* * *

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التى تزجى[٣] الأحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع إلى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة .

من هذه الأعاجيب أن الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وأنه توسل به لإقناع أتباعه برؤية الجنة عيانًا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم إلى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع

---

(٢) ينطق اسم القلعة «آلاموت» أو الَموت بفتح اللام .

(٣) تزجى : زجى الرحل الشيء وأرحاه دفعه برفق . وفلان حاجتى سهل تحصيلها .

فى وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم إلى جنة الفردوس وأنه قادر على مرجعهم إليها حيث يشاء ، وأنهم إذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم إلى السماء .

قالوا : وإن هذا الإقناع أو هذا « الإيمان العيانى » يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وأن كلمة « أساسين » Assasin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع إلى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة إلى الحسن ابن الصباح ، وقالوا أن الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير إليه الشيخ بإلقاء نفسه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وأن أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وأنه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وأن أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن إذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن إذا عاد الأبناء إليهن و لم يفلحوا فى اغتيال أولئك الأعداء .

* * *

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغالى « ماركو بولو » الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولاً فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء .

ونحن نستبعد جدًّا أن يكون للجنة المزعومة أصل فى قلعة حسن بن الصباح ، فإن التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب .

إن الحسن بن الصباح كان معروفًا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، و لم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنًا طويلاً دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد ، وأن يلتبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش أنه يهيئ صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر والإصرار عليها شهورًا أو سنوات .

ومن المحقق أن شيخ الجبل لم يطلع أحدًا على سره ، وأن أحدًا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه إلى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

* * *

إن روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرّروا أنهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى من تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، إذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله .

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم إلى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركو بولو فى روايته يقول أن الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبى ﷺ ، وكأنه يقول أنهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون ، فهم فى شجاعتهم مخدوعون .

إن القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببًا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم أن أناسًا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الإسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت فى كلام مؤرخ إسلامى قديم ولا أن أحدًا من مؤرخى الغرب أسندها إلى مصدر من المصادر الإسلامية .. ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامى لكانت كتب الشرق الأولى بابتداعها من كتب الأوربيين .

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذى دعاهم إلى اختراعها غير غريب ، فإن النخوة الدينية كانت أقرب شىء إلى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانًا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلاً عن الفتيان المجردين للفداء . فإذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانًا فالعجب

لأمهاتهم اللائى كنَّ يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان ؟!

* * *

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو بأشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا وينجو بأتباعه ومصدقيه إلى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانًا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والإيمان ، وكان الإيمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكان لشيخ الجبل إرادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغاطيسى » على المدربين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء وإقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة إلى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين .. فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد إلى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج إلى الوازع والرقيب .

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع إلى الاتهام ومنهم من يتريث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير إيفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الإسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Islamism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين ، وقد عمَّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة .

فأما إن حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا ينخدع وأنه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

الراجح عندنا أن هذا « المهدى » لم يكن خلوًا من الإيمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وأن عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك فى إيمانه بعمله وإن كان هناك شك كبير فى إيمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه .

وما بالنا نتخيله خلوًا من الإيمان منصرفًا كل الانصراف إلى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون الإنسان مدفوعًا إلى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون اعتقاد الإنسان فى عمله خيرًا من اعتقاده فى أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الإيمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟

إن « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وأنه لأقوى ما يكون حين تندفع إليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودواعيه .

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالإقناع الموجب واضحًا أو وسطًا بين الوضوح والغموض .

ونعنى بالرسالة السلبية أنه آمن إيمانًا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وأنه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب .

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية إلى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة إن لم يعمل بها عملاً قويًّا متصل العزيمة والثبات ؟

إما أن يستكين إلى سيادة غيره والموت أحب إلى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، وإما أن يمضى قدمًا ولابد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع إلى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان .

* * *

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر أن الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له أن فيلاً طار أو جملاً باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول أنه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجامًا على رؤوس المجرمين المجازفين .. » .

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم إلى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثيرهم إلى الحركة إذا آثروا السكون ، فإذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى فى نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامة ، وأن الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هى أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه .

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر إلى المريدين بالرموز والإشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذًا بدفعة النسيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه إلى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد أنه اطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين ؟ إن القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته إلى عناية الله يتوجه به حيث أراد .

* * *

إن المؤمنين الخالصين للإيمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة إلا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين .

وتسعون فى كل مائة ، إن لم نقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة إيمان الوقاية أو إيمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، إلى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقًا منهم الطاعة والتسليم .

لم يكن حسن بن الصباح خلوًا من الإيمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرًا عليه أن يركن إلى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالإلهام حينًا بعد حين ، فما عاش

الرجل بقية حياته غائبًا عن صوابه ولا مالكًا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع والمخدوع .

استولى الحسن على قلعة « آلموت » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكًا لتلك القلعة باسطًا نفوذه على ما حولها خمسًا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الإسلامية من مراكش إلى تخوم الصين .

وولى عهده ، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحية للانتساب إلى الإمام واستعان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار » .

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة الإسماعيلى على انتحال المرجع الذى يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدى وإمام كما يشاء .

* * *

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافًا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر[٤] حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون[٥] ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلاً ونهبًا وتشريدًا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال .

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ إلى نصيحة وزيره فى هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله ، فعاد الجيش الذى سيره الوزير إلى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته إليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول .

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدًا بعد واحد ، ويتنبه الرجل إلى مواقع الفرص

---

(٤) زقاق الخمر : جمع زق بكسر الزاى : الجلد يتخذ للشراب وغيره .

(٥) يقصفون : قصف القوم : أقاموا فى الأكل والشرب واللهو .

فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همهُ أنه ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير أنه من الإسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب إليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه .

* * *

فلما آل العرش إلى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره ، لم يجد بدًّا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل فى أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس إليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والأتاوات[٦] فى إقليمه ، ويروى أنه وجد فى طريقه إلى حصار « آلموت » خنجرًا مغروسًا فى فراشه مكتوبًا عليه أن الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال .

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه بل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به فى غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الإسماعيلية على نفسها وأصبح لها فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو إلى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الإسماعيليين ، والثانى يدعو إلى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الإسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون أن المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعًا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه .

* * *

---

(٦) الإتاوات : الإتاوة : المال الذى يؤخذ على الأرض الخراجية .

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت . إنه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، و لم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه أنه ذريعة إلى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب ، فضلاً عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته إياه فى شرب الخمر على الخصوص ، و لم يقتل ولدًا واحدًا بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الإنسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص .

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ إن المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عامًا بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والإقدام .

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها إراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

إنه خلق العقيدة النزارية خلقًا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح .

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الإنسان العجيب .

ونبدأ فنقول : إننا ينبغى أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس .

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلاً عن الشهوات الكبار ، فلا يالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟ .

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الإطلاق ، بل هو أدب الطامحين من أمثاله إلى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الإهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء فى الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر أنه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته وهو المسوغ المقبول أمام ضميره لإقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل .

* * *

فإذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فأنفى الظنون للحيرة أنه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وأنه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وأنه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وأنه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات[٧] ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالإقناع إلى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء .

---

(٧) سورات : السورة : الشدة والثورة والسطوة .

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الإسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعًا للعمل الذى ينوطه[1] الإمام بدعاته ، لا تبعًا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى .

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الإمام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الإطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لإعلان آرائهم وإقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم .

* * *

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الإمام ، حين يكون تعظيم الإمام وتقديسه لازمين لإقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير إشفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصف الإمام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هذه الدنيا أو فى الدار الآخرة وكثيرًا ما يستغنى الإمام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنة العصيبة التى تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشبع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والأشراط التى تؤذن بظهور المهدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فإذا شاع فى النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالإمام إلى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون .

وإذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعًا ولا يخص الإسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الإمامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الإمام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع

---

(١) ينوطه : يعلقه .

بجانبى الرأى إلى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب إلى ضرورة الإمام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة إلى البحث الطويل والاستقصاء البعيد .

* * *

ولقد لخص الغزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصومًا ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ : فإذا قالوا : هو ميت ، فنقول : ومعلمكم غائب ، فإذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ أفبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعل دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى الشرق ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فإذا أجيزت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن — ويقال إن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران — فكذلك فى جميع المجتهدات .. » .

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للإمامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الإمامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين .

* * *

خذ لذلك مثلاً إعلان بدء الصيام ، فإن رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن إعلان الإمام للصيام فلا يأخذ به الإماميون ، بل يقولون إن المسلمين كانوا فى حياة النبى ﷺ يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه

عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » . ولم يكلهم إلى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون .

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الإمام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالإمامية ، وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، وإجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفًا على فهمها ، فإنها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين .

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى برجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الإماميين فى أمر العصمة الواجبة للإمام ، فأباح بعضهم نقد الإمام كما فعل حسن بن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الإشارة إليه ، ولكنهم يقولون : إن الإمام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الإمامة من بعده ، فإن من اختاره طائعًا فهو الصواب المطاع .

لقد صحبنا منشئ « الإسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره فى أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب إلى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن بن علىّ بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون أنه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول أن أباه كان يعمل فى الصياغة ، صناعة الصابئة على شواطئ بحر العجم .

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وأن دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب بن الآمر التى كانت تناقض الدعوة إلى نزار أمام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين إن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن .

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فإذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا إذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف .

وأيًا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئًا من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التى اقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول .

بناة وهدامون ... ومهدمون

ينسب قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرًّا وجهرًا إلى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم أن غير هذه الجهود لم يكن له فى إقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال .

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسىء إلى القضية ولا يحسن ، وأن فريقًا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وأن الدعوة لو انصرفت كلها إلى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منها للإساءة والتنفير لما بلغت غايتها إن لم يكن جو العالم الإسلامى متهيئًا لقبول نظام جديد والإعراض عن نظام قديم .

والواقع أن جو العالم الإسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه .

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير أن التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه .

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « أن الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم إلى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه .

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان ، وليس أكثر من مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير والأحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائمًا بتلك العلامات وهم الذين يركنون إليها ويترقبونها ، ولا سيما حين يكون علم النجوم علمًا يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه .

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه :

أيــن الروايــة أيــن النجــوم ومــا
صاغوه من زخرف فيها ومن كـذب
قــد صيروا الأبــرج العليــا مرتبــة
مــا كان منقلبًــا أو غير منقــلب
وخوفــوا الأرض مــن دهيــاء داهيــة
إذا بدا الكـوكب الغـربى ذو الـذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث إلى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم .

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم أن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وأن صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه .. حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره .. وأن يكنوه بالشمس الطالعة » .

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فإذا علموا أن الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين .

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم — كما جاء فى المقريزى — أنه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين أن الإمام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :

ألا يــا شيعــة الحق ذوى الإيمان والبر
ومــن هــم نصرة الله على التخويـف والزجــر
فعنــد الست والتســـ ـعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى أرصاد النجوم علامات زوالها إلى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغــركم منــى رجوعــى إلى هجــر؟
فعمــا قــريب سوف يأتيكــم الخبر

إذا طلـــع المريخ فى أرض بابـــل
وقارنـــه النجمـــان ، فـــالحذر الحذر
فمـــن مبلـــغ أهـــل العـــراق رســالـــة
بأنى أنا المرهوب فى البـدو والحضر
أنـا الـداع للمهـدى لا شك أننـــى
أنـا الضيغـم الضرغـام والحيـة الذكـــر

وقد تقدم أن الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى أنه من رصدة النجوم ، فإذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير أرصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار ، والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم إلى الغيب من بصير وضرير .

وفحوى ذلك كله أن السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان إلى شيء ، وأن الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير .

وجاءت الدعوة الفاطمية إلى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد .

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزًا وسفهًا فليس لهم منها غير الأسماء .

* * *

وكان بطش العباسيين بأبناء علىّ من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل إلى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذًا عليه فلم

يدر من السرور برؤية مولانا المهدى .. كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبَّل يديه ورجليه » .

ثم قال أن النجاب وصل من دمشق إلى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلاً : « طب نفسًا وقر عينًا ، فو الذى نفسى بيده لا وصلوا إلَىَّ أبدًا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى[1] بنى العباس .. » .

وتبيَّن غير مرة أن النجابين الإسماعيليين كانوا أسرع إلى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل إلى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فإن صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وإيمانه برسالة المهدى على طول طريقه من الشام إلى المغرب ، وإن لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره إلى المغرب الأقصى .

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدى أن الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه – وقد سقط منه – فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت إلى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله ﷺ سوطى غاية يتشرف لها .. » .

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من إقامة الدولة ولا تمكنوا من الإقناع وهو أهم أعمال الدعاة .

* * *

ونتابع الأمر إلى غاياته فنقول : إن الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها

---

(١) نواصى : جمع ناصية وهى منبت الشعر فى مقدم الرأس .

كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم إلى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين .

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون .

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذًا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس .

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم وأصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسًا قليل النظراء .

قيل فى قوة بنيته « إنه كان بقوة عشرة رجال » .

* * *

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء علىّ من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه جلد الأرض بمصارع الروم الذى جاء إلى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى بن عمر الملقب بالشهيد أنه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده » .

وليست قوة البنية شرطًا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج إليها

إذا وجبت عليه الرحلة أحيانًا من مكان إلى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فإذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق .

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه ، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرًا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترئ على عمله وهو ناظر إليه .

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام إلى مصر هربًا من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء إلى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق أنه صلى الصبح يومًا فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد وضرب بيده على كم الإمام وقال له : « قد حصلت لى عشرة آلاف دينار » .

* * *

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت إلى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك أنت الرجل المطلوب . فضحك المهدى وعاد مع الرجل إلى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أنني إذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وزاغ منه .. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير إلى المغرب .

وفى مسيره إلى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه أنه يحدث نفسه بلحاقه إذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه – وكانت تربيته لابنه كما نقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية – فوقع فى نفس الوالى أن رجلاً يعود بعد النجاة

فى طلب كلب لا يظن به أنه خائف على حياته وأنه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبًا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ... » .

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب بن سعد فى تاريخه ، وأنه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره إلى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى إلى بغداد .

* * *

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة أنه بادر على الأثر إلى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعًا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الأعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فإنه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم – داعى اليمن ابن حوشب – فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى إلى المغرب واستقدمه إليها بعد التمهيد له وجمع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس أنهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وأنهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى إليه أنهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة .

وأطلق دعاته الجدد ، ومن أبقى عليه من الأقدمين ، يجوسون خلال الديار الإسلامية لينشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله إلى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الأدارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل إقليم من تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا

أنهم قادرون عليها وأن الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره أن ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير إليها ، تغرير بالثوار ، وأن الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتى عفوًا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيى الثوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين .

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى أنه كان مقسور اليد فى حملاته على مصر . كان يوصى بالأناة والتريث حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الأنصار .. ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفة فى بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب إلى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر إلى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوًا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل فى أول عهده ، فينفذ إلى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمَّله تبعة الإخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل إلى الإسكندرية .

* * *

أما الخطة التى يبدو أنه كان يؤثرها ويختارها فهى إرجاء الحملة على مصر إلى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينة التى أزمع أن يتخذها حصنًا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمنًا وأحرجته أيما إحراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمعًا عنيفًا لا رحمة فيه ، ولم يسكن إلى مقره بالمغرب إلا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهدية ، فانتقى لها موقعًا يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورًا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبًا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة إحدى قبائل البربر التى تواليه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفًا عن المهدية وعزلاً بين السكان ومرافقهم ، وأفضى إلى خاصته بأنه إنما فعل ذلك ليأمن

غائلتهم . قال : « إن أموالهم عندى وأهاليهم هناك . فإن أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سورًا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلاً ونهارًا » .

* * *

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الإسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين .

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة ، وقيل أنه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته .

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعًا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والأدارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكمًا أو غير حاكم أنه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يومًا عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء إلى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وأنه تواطأ سرًّا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والإغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكًا مؤسسًا يغالب عوادى الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية إلى اليوم .

المعز لدين الله

واحتاجت الدولة إلى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك إليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل أنها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالأربعينات .

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وإن لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطىء الإيطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ، ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور إلى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الإفرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدًا فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس .

* * *

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » : إن ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح إلى غصن الزيتون مع السيف .

وقد كان هذا شأن المعز فى المغرب بعد جده .. فإنه كان يحسن المجاملة إلى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان .

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علمًا وعملاً ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعًا ، فكان يحسن البربرية والرومية والإيطالية

والنوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما إلى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام فى تلك الأيام .

ويروى عن أنفته من الجهل أنه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد أنها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فإذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها .

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين ، فهمَّه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد إلى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع إليه المخالفون يتقربون إليه لما آنسوه من مودته وكرمه .

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول أنه كان حريصًا على الانتفاع بالتجارب والعبر ، وأنه كان يحسن اصطناع الرجال ، وأنه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه .

فلم ينس هزيمة الأسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدَّد حفر الآبار فى الطريق إلى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه .

ومن اصطناعه للرجال أنه كان يستخلص الخدام والأعوان ولا يغار من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرًا عند تبليغ بشارة الفتح إلى المعز فلم يبدأ بإبلاغها إلى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه إلى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر ابن فلاح ورد إليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر إليه .

ومن اصطناعه للرجال أنه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه أنه كان إذا لقى أحدًا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه

ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الإشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فإن الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة[١] النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول أنه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك أنه تحدى البطرق إيرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين .

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الإشاعات ، فإن الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلاً من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع[٢] وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان) .. وقيل أنه أمر بإقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارًا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره إلا شفاعة البطرق له عند الخليفة .

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الإشاعة عن مدفنه فى مقبرة الكنيسة ، ولعلها إشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هذه الإشاعة وما إليها موئل العزاء فى أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين .

* * *

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص أنه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر ، ومنه فى رواية المقريزى أن صبية عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضرت إليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فإذا هى

---

(١) الخريدة : المرأة الحيية الطويلة السكوت . والعذراء .

(٢) البيع : جمع بيعة بكسر الباء . كنيسة المسيحيين .

ابنة الأخشيد محمد بن طفج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبًّا فاشترتها لتستمتع بها » .

قال المقريزى : « فعاد الوكيل إلى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصَّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز : يا إخواننا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا إليهم .. » .

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها . ولكن المعز – على خلاف المعهود من سياسة أسرته – حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله إلى مصر منعًا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين . وتطهيرًا للأخلاق مما أصابها فى تلك الأيام وأدرك منه المعز أنه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد .

وقدم جوهر إلى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوهًا التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطمينًا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم .. ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... » .

* * *

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم – وهى شهرة صحيحة – فقالوا أنها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالاً وعلقوا فى الحبال أجراسًا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وأن غرابًا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين إله الحروب .. !

هذه القصة « أولاً » تروى عن بناء الإسكندرية .

وهى « ثانيًا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلاً والغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلاً أو نهارًا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس تدق على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيًّا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة إلى الأجراس .

ثم من قال أنه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون أن المهندسين هم الذين حركوا الحبال ؟ ولم لا يكون طيرًا آخر أو جملة من الطير ؟ .

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفى التنبيه إلى ما فيها من الإحالة[٣] عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل .

* * *

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فإنهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئًا فشيئًا قبل مطالبتهم بتعبير ما توارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر فى بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما – أى القطائع والفسطاط – كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلاً ومقامًا كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا إليه .

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لإقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم إلى الإسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين إليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلاً إنه لم يقصد إلى مصر طمعًا فى زيادة ملك أو مال وإنما قصد إليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الإسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق إلى الحجاز كان ضمانًا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، إذ كان

(٣) الإحالة : أحال الرجل : أتى بالمحال وتكلم به .

القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملاً بمذهب الإسماعيليين ويزعمون أن الإسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم إلى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنًا للدماء وأرسل إلى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه المال إذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير .. ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعًا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالإياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها إلى غاراتهم على مصر .

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فإن ابنه العزيز الذى تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها إلا عجل بقمعها وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة إلى نصابها ، ولكنه مات (سنة ٣٨٦ للهجرة) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت إلى حين فى إبان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع إدبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء .

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص إنسان ، لو لم يكن تاريخه خبرًا يقينًا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بإنكاره ، إذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضًا ولا يتصور العقل لأول وهلة أنها تصدر من إنسان واحد .

ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها

ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرِّم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانًا بالنهار جلده ومن أغلق دكانًا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والإماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعبد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج إلى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس إلى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون .

قال ابن خلدون : « إن حاله كان مضطربًا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « أنه كان جوادًا سمحًا ، خبيثًا ماكرًا ، ردىء الاعتقاد ، سفاكًا للدماء ، قتل عددًا من كبراء دولته صبرًا ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورًا وأحكامًا يحمل الرعية عليها .. » .

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء .

فمن مؤرخى القبط من يقول أنه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول أنه كان يعبد المريخ ويتوهم أنه يراه ويتحدث إليه ، ومن مؤرخى السنة من يقول أنه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض فى آخر الزمان ، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات .

وفى رأينا بعد هذا أن سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير فى وقت واحد .

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ، وهى أقلها عجبًا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة .

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض(٤) .

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم

(٤) Mystic Hallucinosis

لإيمانهم بالرموز واعتقادهم أن الغيب يتحدث إليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين ، وإذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض أن الناس يضمرون له السر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح .

ويسكن المتهوسون بالأسرار إلى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات .

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونًا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع إبداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون .

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدًا رويدًا فى مقتبل الشباب .

وغير « الفرويديين » يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحيانًا أن ينظر إلى الشىء الماثل فلا يراه ويصغى إلى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فى الرجوع بالعلة إلى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية .

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات إلى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقًا فى دسائس القصور وسياسة الحريم .

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل إلى استطلاعه . كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع

وتوسوس له بالريبة والتساؤل ، فإذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى إلى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار العيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة : آفة الهوس بالأسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، إذ قيل أنهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت .

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل أعصابه من قبل الإسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ إلا بإلحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بإدخال السرور إلى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وإنما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الأنطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وأن كثرة سهره أيضًا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وأن أبا يعقوب إسحاق ابن إبراهيم بن إنسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع إلى ما كان عليه » .

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئًا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فإن طفلاً يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلقين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة — غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارًا لأنه يتوهم أنه يروض نفسه بالتقشف والتهجد(٥) ، وحمل الناس عليها والتقرب إلى الله بعقاب من

(٥) التهجد : القيام فى الليل للصلاة .

ينحرف عنها ، فتنكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وإيمان المستريح إلى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح إليه .

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت إحدى جرائر « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشرى[٦] حتى تناولت كل شيء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرًّا قائمًا بذاته وشرًّا محسوبًا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلاً دون اتقائها ومنعها كما كان حائلاً دون معالجتها بعد وقوعها .

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت[٧] بينها نوازع الشقاق تبعًا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان إلى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولأنفسهم وللقادة والحكام .

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم .

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وإن بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا إلى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال إليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الإتاوات من الرشوة والإرهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد .

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فإن المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول .

وقد سمى عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمى عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئًا

---

(٦) تستشرى : تشتد .

(٧) شجرت : تشابكت .

خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) إلى أن مات وهو يدلف[٨] إلى السبعين ، ولكنه كان عصرًا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود .

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وإنما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلاً من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر إحدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين .

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان .. ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة .. فلم يبق للعاضد سوى إقامة ذكره فى الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه إلى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. » .

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة[٩] ، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الإقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت[١٠] كفتها فى ميزان الزمان .

---

(٨) يدلف : دلف الشيخ : مشى وقارب الخطو .

(٩) المشنوءة : المكروهة .

(١٠) شالت كفتها : شال الميزان ارتفعت إحدى كفتيه على الأخرى .

حضـارة محتضرة

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال أن حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافًا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فإن صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومنْ ثَم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها .

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية .

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الإسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاطلاع .

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم .

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف .

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانًا إلى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وإن خالف به إجماع الآراء .

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون

جمهرة الناس طرفًا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء .

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان .

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والإتقان .

وقد ألف الوصافون إذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من نسخة الخيال .

وكانت التجارة مددًا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العام كله لا تنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء .

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت إليها ، فبعد إلغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز إلى القاهرة عادوا إلى الاحتفال به وأضافوا إليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد الإمام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام[١] .

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة[٢] ويخرجوا إليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون إلى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار .

---

(١) نوافل : جمع نافلة وهى عمل ما لا يجب عمله ، كالصيام فى غير شهر الصيام .

(٢) الأسمطة : جمع سماط وهو ما يبسط ليمد عليه الطعام .

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب أنها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى إلى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء .

لا جرم كانت مصر إبان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء .

فما من رحالة أنجبه العالم الإسلامى لم يتخذ من مصر مقامًا أو مزارًا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء .

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال أنه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرتنـــــــا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمـرت نـدى كفـيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :

مـــذاهبهم فى الجود مـــذهب سنـــة
وإن خالفـونى فى اعتقـــاد التشيـــع

وهو الذى بخع[٣] نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملاً فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها أنها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

---

(٣) بخع : بخع نفسه : أهلكها .

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل[٤]
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل[٥]
والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل
وما حملتم قرى الأضياف من سعة الأ
طباق إلا على الأكتاف والعجل

(٤) الوشل : الماء القليل يتحلب من صخرة يقطر قليلاً قليلاً .
(٥) الأسل : نبات يخرج قضبانًا دقاقًا . والرماح .

وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين ولضـ
ـيف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾



الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع : ٩٣/١١٣٦٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 04 - 1699 - 3

